سِمات
S e m a t

الجذور السيميائية في التراث العربي القديم: مقاربة نظرية

حسين فيلالي

جامعة بشار – الجزائر

Filali_hocine@yahoo.fr

Received: 25 April 2014,
Revised: 22 May 2014, Accepted: 23 June 2014
Published online: 1 Sept. 2014

Semat
ISSN 2210-173H
Semat, 2, No. 3, (Sept. 2014)

الجذور السيميائية في التراث العربي القديم:
مقاربة نظرية

حسين فيلالي
جامعة بشار – الجزائر

الملخص

انطلقنا في بحثنا من سؤال : هل عرفت الثقافة العربية القديمة علم السيمياء؟
بحثنا في المعاجم العربية القديمة، ونقبنا في كتب النقد القديمة، لنجمع إشارات متفرقة هنا وهناك، استطعنا بعدها بلورة رؤية خاصة، قادتنا إلى القول: إن الثقافة العربية القديمة لم تعرف علم السيمياء بمفهومه الحديث، ولكنها عرفت بعض الممارسات السيميائية غير اللسانية التي ساعدت العربي قديما على التواصل مع غيره ومع بيئته.

الكلمات المفتاحية: العلامة غير اللسانية، الدال المفسر، العلامة الطبيعية، الدوال الحسية، الإشارة الليلي، العلامة الضوئية، المدلول الأسطوري، العلامة المادية المرفية.

The Roots of Semiotics in the Classical Arabic Studies: Theoretical Approach

Hocine Filali
Bechar University – Algeria

Abstract

This paper is based on an attempt at confirming whether or not semiotics as science was known in ancient Arab culture and studies.

I looked into ancient Arabic dictionaries and hunted in ancient Arab criticism works for gathering dispersed mentions and indications that enabled me to shape a specific point of view out of which one can state that semiotics as defined in modern works, was not known in Arabic ancient criticism theory, nevertheless some non-verbal semiotic applications did exist for at least communicative purposes.

Keywords: Nonlinguistic sign, explicate signifier, natural sign, sensory signifiers, night signal, optical sign, mythical signified, materialistic sign, conventional sign, nonlinguistics sign.

الجذور السيميائية في التراث العربي القديم:
مقاربة نظرية

حسين فيلالي
جامعة بشار – الجزائر

لعل السؤال الذي يواجه الباحث في السيميائية في النقد العربي، هو سؤال الماهية، فما هي السيميائية أو السيميولوجيا ؟

لا يكاد يخلو كتاب يؤرخ للسيميائية في الثقافة الغربية من القول: "أن الكلمة آتية من الأصل اليوناني sémeion" "الذي يعني علامة، وlogos الذي يعني خطاب الذي نجده مستعملا في كلمات من مثل sociologie علم الاجتماع،و Théologie علم الأديان (اللاهوت)، وBiologie علم الأحياء Zoologie علم الحيوان،الخ...و بامتداد أكبر كلمة Logos تعني العلم ،هكذا يصبح تعريف السيميولوجيا على النحو الآتي: علم العلامة، إنه هكذا على الأقل يعرفها "ف.دوسوسير."[1]

وتنقسم العلامة إلى قسمين:

- علامة لسانية.

- وعلامة غير لسانية.

العلامة غير اللسانية في الثقافة العربية:

لعل من الإنصاف القول: إن الباحث في التراث العربي القديم لا يعدم وجود إشارات متفرقة في مضان الكتب هنا، وهناك، يمكن أن يهتدي بها لمحاولة بلورة نظرة بسيطة عن مفهوم العلامة، وإيجاد ما يمت بصلة للفعل السميائي عند العرب القدماء.وحتى وإن بدت هذه البدايات بسيطة وساذجة، فإن في بساطتها، وسذاجتها ما يبرر فطريتها في الكائن الإنساني.

فمنذ أن وجد الإنسان على هذا الكون وهو يواجه رحلة البحث عن أسرار الدلائل في الكون ("لأن الكون يمثل أمامنا باعتباره شبكة غير محدودة من العلامات، فكل شيء يشتغل كعلامة، ويدل باعتباره علامة، ويدرك بصفته علامة أيضا").[2]

إن إنسان ما قبل الكتابة كان يعطي العلامات الكونية تفسيرات مختلفة تنحو في الكثير من الأحيان منحى أسطوريا.

هذه التفسيرات، وبالرغم مما نقول عنها اليوم- وقد لا نرى لها جدوى في بعض الأحيان- إلا أنها كانت تساعد الإنسان (ما قبل الكتابة) على التواصل مع محيطه، وتجعله يفسر العديد من الظواهر الكونية التي تحيط به.

وعلى هذا أسميت هذه العلامات بالدوال المفسرة والتي تشترك فيها كل الثقافات البدائية[3].

ويمكن اعتبار هذه المرحلة شبيهة الطفولة

١- برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، ترجمة محمد نظيف، ط ٢- إفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ص:٩ .

٢- بيرس K نقلا عن سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب،٢٠٠٣، ص ٦٠/٦١.

٣- هكذا يسميها أصحاب الأنتربولوجيا الثقافية، وعلى رأسهم الباحث الإنكليزي تايلور ومنهم من لا يحبذ هذه التسمية ويقترح بدلها عبارة ثقافة ما قبل الكتابة. أو الثقافة غير الكتابية. وللمزيد ينظر على سبيل المثال: محمد أحمد بيومي، الأنثربولوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ب،ط، ١٩٨٣، ص :٥١.

الأولى للثقافات الإنسانية، ذلك أن الطفل في مرحلته الأولى – ومهما كان جنسه،أو لونه – يبدأ بإدراك بعض المحسوسات، ويظل يجهل مبدأ السببية، ولا يستطيع إدراك المجردات التي تحتاج إلى تأويل، ومعرفة، وإمعان العقل .

ومع تطور الزمن، بدأ إنسان ما قبل الكتابة يتدرج في إدراك العلاقات بين الأشياء المحسوسة ويعطيها دلالات، فقد ذكر المقري في نفح الطيب أنه "قيل لأعرابي بم عرفت ربك فقال: البعرة تدل على البعير، والروث يدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج أما تدل على العليم القدير؟".[٤]

ويمكن أن ننظر إلى الآثار هنا على أنها إحدى طرق إنتاج العلامة كما يقول إمبرتو إيكو[٥]، فنلاحظ أنها أنتجت علامات ليست غريبة عن ثقافة الأعرابي التي كانت القيافة جزءا منها، فربط الأعرابي بين العلامة، ومدلولاتها كما تبين هذه الخطاطة:

١- الدال: بعرة / المدلول: البعير

فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة مادية لا يمكن الاختلاف حولها، ويمكن التحقق منها عن طريق المشاهدة بالعين المجردة.

٢- الدال: أثار الأقدام / المدلول المسير

٣- الدال: الروث/المدلول الحمير، العلاقة بين الدال، والمدلول علاقة مادية طبيعية لا تحتاج إلى التأويل.

٤- الدال: السماء +البحار/المدلول عليه بخلقه وهو العليم القدير.

إن العلاقة بين الدوال الحسية والمدلول عليه بخلقه هي علاقة إنوجاد توصل إليها الأعرابي، واستنتجها من خلال توظيف قرائن مادية ذلك أن وجود الموجودات مشروط بوجود الواجد لها.

إن استدلال الأعرابي بالمخلوقات على الخالق، وعلى المحسوس في مخلوقاته بالملموس في ماديته، لا يبتعد كثيرا عما ذهب إليه الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى(رب العالمين)، فهو يرى (أن علمنا بوجود الشيء إما أن يكون ضروريا أو نظريا،لا جائز أن يقال العلم بوجود الإله ضروري، لأنا نعلم بالضرورة أنا لا نعرف وجود الإله بالضرورة فبقي أن يكون العلم نظريا والعلم النظري لا يمكن تحصيله إلا بالدليل ولا دليل على وجود الإله إلا أن هذا العالم المحسوس بما فيه من السموات والأراضين، والجبال والبحار والمعادن، والنبات، والحيوان محتاج إلى مدبر يدبره، وموجود يوجده، ومرب يربيه ومبق يبقيه فكان قوله "رب العالمين" إشارة إلى الدليل الدال على وجود الإله القادر الحكيم).[٦]

فالأعرابي استعان بخبرته الحياتية، وتوصل إلى قراءة الدلائل المرئية، واستشهد بالحاضر الملموس للاستدلال على المحسوس في الملموس حتى وإن عجز عن تحديد ماهية المحسوس في الملموس، فعجزه عن إدراك المحسوس في الملموس إدراكا ماديا لم يمنعه من الإقرار بوجوده.

والفعل الذي قام به الأعرابي لا يعدو كونه انطلق من الدلائل المادية، وربط بين الموجود، والواجد، ونظر في الملموس، ووصل إلى المحسوس في الملموس.

ومن يعود إلى القرآن الكريم يجد الكثير من الإشارات الداعية إلى تأمل وتدبر الدلائل المادية "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت".[٧]

٤- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، ج ٥، دار صادر،بيروت، لبنان، ب، ط، ١٩٦٨، ص:٢٨٩.

٥- ينظر إيكو أمبرطو: السيميائية وفلسفة اللغة ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط . ١، ٢٠٠٥ ص: ١٠٢.

٦- تفسير الفخر الرازي، مج الأول، ج الأول، دار الفكر، بيروت لبنان، ط ١ /١٩٨١، ص ١٨٥.

٧- سورة الغاشية، رقم ٨٨، الآيات ١٧/١٨/١٩.

وتحرير معنى آيات الغاشية عند الألوسي هو أن الجاحدين من العرب عندما أنكروا قضية البعث، واستبعدوا وقوعه من قدرة الله، خاطبهم "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" وأمرهم أن يتدبروا في ما حولهم، إذ كيف (لا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلق أكثر أنواع الحيوانات في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيآته.... وخصت الإبل بالذكر لأنها أعجب ما عند العرب من الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا....)[٨].

نرى أن الله سبحانه وتعالى استعمل فعل ينظرون وهو (فعل يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته)[٩].

بمعنى أن الله خاطبهم بما يستطيعون إدراكه، إدراكا ماديا، وطلب منهم تدبر الدلائل المادية المرئية وهو الخطاب الذي يتكرر في القرآن الكريم:

"إن في ذلك لآيات للمتوسمين"[١٠].

ويذهب أحمد بن فارس إلى أن المقصود من المتوسمين في هذه الآية هم الناظرون في السمة الدالة[١١].

والعرب كانت كثيرة التنقل في الصحراء تبحث عن بعير شارد أو إنسان ضال، أو موضع النجع، وهي في صحرائها اللامتناهية لا بد لها من علامات مادية تهتدي بها كالجبال والنجوم.

ومن يعود إلى الشعر العربي القديم لا يعدم وجود شواهد على ما ذكرنا.

يقول زهير:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن

تحملن بالعلياء من فوق جرثم

جعلن القنان عن يمين وحزنه

وكم بالقنان من محل ومحرم

علون بأنماط عتاق وكلة

وراد حواشيها مشاكهة الدم

ووركن في السوبان يعلون متنه

عليهن دل الناعم المتنعم

بكرن بكورا واستحرن بسحرة

فهن ووادي الرس كاليد للفم.

وفيهن ملهى للطيف ومنظر
أنيق لعين الناظر المتوسم

كأن فتات العهن في كل منزل
نزلن به حب الفنا لم يحطم"[١٢]

يرسم زهير في هذه الأبيات رحلة الظعائن، ويتتبع منعرجات الطريق، ارتفاعاتها (العلياء) وانخفاضاتها (واد الرس)، مهتديا في ذلك بمعالم مادية معروفة كالجبال (القنان: وهو جبل لبني أسد)، والمياه (جرثم: وهو ماء بعينه كما يذكر الزوزني) وهو في ذلك كأنما يرسم خريطة لشبكة الطرقات التي تسلكها الظعائن، ويضع عليها علامات مادية ثابتة تغدو للسائرين في النهار بمثابة إشارات المرور بالمصطلح الحديث تبين ضرورات الانحراف إلى اليمين (جعلنا القنان عن يمين وحزنه) وضرورات التوقف:

فلما وردن الماء زرقا جمامه

وضعن عصي الحاضر المتخيم"[١٣]

وإذا كانت الجبال والآكام علامات يهتدي بها العربي في النهار وهي إشارات طبيعية، فإن له في الليل علامات أخرى يهتدي بها، وتلعب دور الإشارات الضوئية بالمفهوم الحديث:

٨- محمود شكري الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج٢٩/ ٣٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب،ط، ص ١١٦.

٩- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مج٥، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل بيروت ب، ط ، ب، ت، ص٤٤٤.

١٠- سورة الحجرات آية ٧٥.

١١- أحمد بن فارس،المصدر، السابق، ص:١١١

١٢-أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية بيروت، ط١/ ١٩٩٨، ص: من ١٠٨ إلى ١١١.

١٣-الزوزني، المصدر السابق، ص:١١١.

"يكون بها دليل القوم نجم

الكلب في هبى قباع"[١٤]

فالعربي كانت له إشارات ليلية، وأخرى نهارية يهتدي بها في ظلمات البر، والبحر، وهي التي تصحح مساره (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون)، (علامات وبالنجم هم يهتدون)"[١٥]".

يقول ابن كثير: (علامات أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برا وبحرا إذا ضلوا الطريق وبالنجم هم يهتدون أي في ظلام الليل).[١٦]

فالنجوم صارت علامات ضوئية يحدد بها العربي موقعه، واتجاه سيره ليلا على خريطة الصحراء و(من هذه النجوم، نجم في الكرة الشمالية من السماء يقال له النجم القطبي، وهو يبدو للرائي ثابتا في مكانه فيما تدور من حوله وعلى أبعاد متفاوتة سائر النجوم. هذا النجم الشمالي عرفه العرب باسم (الجدي) بضم الجيم وفتح الدال وتشديد الياء وهو غير (الجدي) بفتح الجيم وتسكين الدال أحد أبراج السماء في الجنوب فاتخذوا منه دليلا في أسفارهم حيثما كانوا في الأرض يعرفون به الجهات لأنه لجهة الشمال. ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فعن قتادة، ومجاهد، عن ابن عباس أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال (الجدي) علامة قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم).[١٧]

ولعل طبيعة الحياة الصحراوية هي التي جعلت العرب لا يتوقفون عند معرفة الاستدلال بالنجوم، أو الجبال بل أضافوا إلى ذلك براعة أخرى وهي القيافة "والقيافة على ضربين: قيافة البشر وقيافة الأثر، فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مد لج يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفرا فيلحقه بأحدهم... وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به ومن العجب يعرفون قدم الشاب من الشيخ،و المرأة من الرجل والبكر من الثيب، والغريب من المستوطن...."[١٨]

فالقيافة هي إذن ضرب من قراءة الدلائل المادية التي أنتجتها الثقافة العربية ذات الطبيعة الصحراوية، ذلك أن لكل ثقافة-مهما كانت درجة وعيها وتطورها-طرائقها الخاصة التي تتواصل بها مع الكون ومع أفرادها، والقيافة "من خواص ما للعرب وما تفردت به دون سائر الأمم في الأغلب منها وإن كانت الكهانة قد وجدت في غيرها فان القيافة والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها في الأغلب من الأمور.."[١٩].

الدال مادي/المدلول أسطوري:

والعربي في القديم قرأ بعض الظواهر الطبيعية ،واعتبرها دوالا لها دلالات وظلال في الواقع، وربط بينها وبين الأفعال، والآثار التي تحدث في محيطه وراح يبحث لها عن مدلولات محسوسة، ولما كان يعجز عن إيجاد المدلولات المادية لجأ إلى تفسيرات غيبية أسطورية،و الأسطورة تستعمل «على مستوى أرفع في بعض العلوم الإنسانية للدلالة على تضخيم، أو تحوير

١٤- البيت ورد في لسان العرب، وقد أنشده ثعلب دون أن ينسبه إلى شاعر ما. وقباع جمع قابع يصف نجوما قد قبعت في الهبوة، وهبى، جمع هاب أي الداخل في الهبوة. والهباء في الأصل ما ارتفع من تحت سنابك الخيل والشيء المنبث الذي تراه في ضوء الشمس فشبه به أتباعه.

١٥- سورة النحل، رقم ١٦، الآيتان ١٥/١٦.

١٦- ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٢، دار الشهاب الجزائر. ب، ط، ١٩٩٠

١٧- يحى عبد الأمير شامي، النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي،دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١٩٨٢/١ ص:٥١.

١٨-شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ب، ط، ٢٠٠١، ص: ١٤٧.

١٩-علي بن الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢ – موفم للنشر، الجزائر، ب، ط، ١٩٨٩

للواقع يتم في المخيلة الشعبية".[٢٠]

فالأسطورة في الواقع العربي القديم كانت ضربا من ضروب قراءة الدلائل كما كانت تسهم في الآن نفسه في تعزيز وهم التواصل مع الكون، فالجاحظ يذهب إلى أن العرب كانوا "في الجاهلية الأولى إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء واشتد الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ثم صعدوا بها في جبل وعر وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع.فكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا"

والشمس في ثقافات ما قبل الكتابة غدت إلاها، والقمر إلاها، والكواكب آلهة وهي، في اعتقادهم، التي تتصرف في الكون وتسيره، لذا عبدوها، وقدموا القرابين لها،وأقاموا الطقوس لها وقد جاء في مروج الذهب "أن أهل مأرب عبدوا الشمس وأن عادا عبد القمر منذ القديم، يثبت ذلك قوله تعالى في سورة فصلت، الآية ٤١، ناهيا عن عبادة الشمس والقمر: "ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن"[٢١]

مفهوم السمة في القواميس العربية القديمة[٢٢]:

قاموس العين:

جاء في قاموس العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هجرية) مادة وسم الوسم: أثر الكي، وبعير موسوم: وسم بسمة يعرف بها من قطع أذن أو كي. والميسم المكواة أو الشيء الذي يوسم به سمات الدواب، والجمع المواسم، قال الفرزدق:

لقد قلدت جلف بني كليب
قلائد في السوالف ثابتات
قلائد ليس من ذهب ولكن
مواسم من جهنم منضجات

وفلان موسوم بالخير والشر أي عليه علامته. توسمت فيه الخير والشر،أي رأيت فيه أثرا.... والوسمي أول مطر السنة يسم الأرض بالنبات فيصير فيها أثرا من المطر في أول السنة.... وموسم الحج موسما لأنه معلم يجتمع فيه.)[٢٣]

معجم مقاييس اللغة:

ونقرأ في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥ هجرية) الواو والسين والميم أصل واحد يدل على أثر أو معلم. ووسمت الشيء وسما:أثرت فيه بسمة.

والوسمي: أول المطر، لأنه يسم الأرض بالنبات.... وسمي موسم الحاج موسما لأنه معلم يجتمع إليه الناس.... وقوله تعالى» إن في ذلك لآيات للمتوسمين» الناظرين في السمة الدالة.[٢٤]

معجم أساس البلاغة:

لا نجد الزمخشري (ت٥٣٨ هجرية) يفصل كثيرا في مادة وسم فهو يتعرض لمعنى الفعل وسم: وسم دابته بالميسم وسما وسمة وما سمة دابتك وسمات إبلك. ومن المجاز: وسمه بالهجاء،قال الفرزدق:

لقد قلدت جلف بني كليب
مواسم في السوالف ثابتات

وقال: (الكامل):

إني امرؤ أسم القصائد للعدا
إن القصائد شرها أغفا لها

وهو موسوم بالخير والشر ومتسم به ومنه: موسم الحاج ومواسم العرب لأنها معالم كانوا

٢٠-ماري زيادة، السيمياء والأسطورة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت، عدد ٣٨ آذار، ١٩٨٦.
٢١-المسعودي علي بن الحسين،المصدر السابق، ج٢، ص ١٥٠.
٢٢- يأتي مفهوم السمة في الأصل في القواميس العربية القديمة بمعنى العلامة المادية (الأثر) وقد يأتي بالمعنى المجازي.
٢٣- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار أحياء التراث العربي، بيروت لبنان - ط ٢٠٠١/١، ص ١٠٥٠.
٢٤- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، مج ٦، دار الجيل، ب، ط، ب، ت ص١١٠.

يجتمعون فيها ... وأرض موسومة أصابها الوسمي، والوسمي منسوب إلى وسمه الأرض بالنبات.[٢٥]

القاموس المحيط:

جاء في قاموس المحيط للفيروز أبادي (ت.٨١٧ هجرية)... "والسيمة والسيماء، والسيمياء بكسرهن العلامة، وسوم الفرس تسويما جعل عليه سيمة... ومن طين مسومة أي عليها أمثال الخواتيم أو معلمة ببياض وحمرة أو بعلامة يعلم أنها ليست من حجارة الدنيا.."

معجم لسان العرب:

"وسم: الوسم كأثر الكي والجمع وسوم... وقد وسمه وسما إذا أثر فيه بسمة وكي والهاء عوض عن الواو، وفي الحديث: أنه كان يسم ابل الصدقة أي يعلم عليها بالكي. واتسم الرجل إذا جعل لنفسه سمة يعرف بها وأصل الياء واو. والسمة والوسام: ما يوسم به الدواب، والجمع الصور والميسم المكواة أو الشيء الذي يوسم به الدواب، والجمع مواسم، ومياسم.. قال ابن بري: الميسم اسم للآلة التي يوسم بها،واسم لأثر الوسم أيضا كقول الشاعر:

ولو غير أخوالي أرادوا
جعلت لهم فوق العرانين ميسما نقيصتي

فليس يريد جعلت لهم حديدة وإنما يريد جعلت أثر وسم."

ولم يخرج معنى الوسم في التفاسير القديمة عما جاء في المعاجم العربية القديمة، فالفخر الرازي في كتابه المشتهر بالتفسير الكبير، ومفاتيح الغيب، يذهب إلى أن المقصود بكلمة الوسم في الآية الكريمة (سنسمه على الخرطوم) هو أثر الكية وما يشبهها، يقال وسمته،فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية، وإما قطع في الأذن علامة له... وتقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة:

قد وسمه ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عارا لا يفارقه، كما أن السمة لا تمحي ولا تزال البتة، قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي

وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

يريد أنه وسم الفرزدق والبعيث وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عارا لا يزول،...)[٢٦]

نستنتج مما سبق ذكره:

١. أن الإنسان قد عرف العلامة غير اللسانية منذ القدم، فمنذ وجوده على هذا الكون وهو يحاول قراءة ما يصادفه من علامات مادية، ويسعى إلى تفسيرها، والتواصل بها، ومعها حسب درجة فهمه، ووعيه.

٢. أن المتصفح للمعاجم العربية القديمة يجدها تكاد تحصر معنى السمة في دلالاتها المادية: الأثر، أو الكي، ذلك أن العرب في الفترة التي سبقت الدرس اللغوي، والبلاغي، والفلسفي اقتصرت معرفتها للعلامة–كغيرها من الأمم الأخرى– على معناها غير اللساني.

٣. أن العلامة غير اللسانية عند العرب القدماء تنقسم إلى قسمين:

أ–علامة طبيعية لا تحتاج إلى تأويل:

كالجبال، والأودية، والكثبان، والمياه، والنجوم، وهي تلعب دور إشارات المرور بالمصطلح الحديث، ولنا في الأمثلة التي ذكرنا من القرآن الكريم والشعر الجاهلي وغيره ما يدعم هذا الرأي.

ب–علامة مادية عرفية تحدد العلاقة بين الدال والمدلول التواضع:

كالكي، والوسم الخاص بالدواب: ويلعب هذا النوع من العلامة دور التسمية والتعريف، والتخصيص، فنجد سمة إبل بني فلان (علامة/كي) قد تظهر على الرقبة بينما قد

٢٥–الزمخشري، معجم أساس البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١/٢٠٠٣، ص ٩٠٣.

٢٦– تفسير الفخر الرازي، مج ١٥، ج ٢٩/٣٠، دار الفكر، بيروت، ب، ط ،١٩٨١.

تضع قبيلة أخرى علامتها على الفخذ، أو الوجه، وقد نجد سمة قبيلة ما هي عبارة عن شق في الأذن من الأمام، أو الخلف، أو قطع جزء منها، وفي المعاجم القديمة "وبعير موسوم: وسم بسمة يعرف بها من قطع أذن أو كي"، "ما سمة دابتك، وسمات إبلك". وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنه كان يسم إبل الصدقة أي يعلم عليها بالكي".

ولعل في الأبيات التي أوردها الجاحظ في البيان والتبيين منسوبة إلى بعض الأعراب ما يدعم ما نذهب إليه:[٢٧]

بهن من خطافنا خبط وسم
وحلق في أسفل الذفري نظم
معها نظام مثل خط بالقلم
وقرمة ولست أدري من قرم
عرض وخبط للمحليها المسم[٢٨]

هوامش البحث:

ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٢، دار الشهاب الجزائر. ب، ط، ١٩٩٠.

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار أحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط ٢٠٠١/١.

أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية بيروت، ط١/ ١٩٩٨.

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان ج ٤، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ب، ط، ١٩٩٦.

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق موفق شهاب الدين، ج٣، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط./٢٠٠٣/٢/.

أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مج٥، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت ب، ط ، ب، ت ص٤٤٤.

أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، ج ٥، دار صادر، بيروت، لبنان، ب، ط، ١٩٦٨.

إيكو أمبرطو: السيميائية وفلسفة اللغة ترجمة أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط . ١، ٢٠٠٥.

برنار توسان ، ما هي السيميولوجيا، ترجمة محمد نظيف، ط ٢، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.

الزمخشري، معجم أساس البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٢٠٠٣/١.

سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ٢٠٠٣.

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ب، ط، ٢٠٠١.

علي بن الحسن المسعودي، موفم للنشر، الجزائر،ب،ط،١٩٨٩

الفخر الرازي، التفسير، مجلد ١٥، ج ٣٠/٢٩، دار الفكر، بيروت،ب، ط -١٩٨١.

ماري زيادة، السيمياء والأسطورة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت، عدد ٣٨ آذار، ١٩٨٦

محمد أحمد بيومي، الأنثربولوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ب، ط، ١٩٨٣.

محمود شكري الألو سي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج٢٩/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب، ط .

المسعودي علي بن الحسين، المصدر السابق، ج٢.

يحى عبدالأمير شامي، النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١/١٩٨٢.

٢٧- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق موفق شهاب الدين، ج٣، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط./٢٠٠٣/٢/ص:٦٠

٢٨- الخطاف سمة يوسم بها البعير، الخبط ضرب من الوسم في الفخذ أو الوجه. والعلط:ضرب من الوسم في العنق. الذفري: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن. القرمة: سمة فوق الأنف. العرض: ضرب من الوسم عند الفخذ. والتحلية: الوصف والمسم: المسمى من التسمية (البيان والتبيين:٦٠)